14

السينما و.. الثورة

أفلام "مع" أفلام "ضد"

(وعندما علم جمال عبد الناصر بتفاصيل الفيلم، وأن كمال يس سيقوم بنفس الدور الذي لعبه ناصر، حرص على الالتقاء به عدة مرات، وناقش معه كثير من التفاصيل كي يخرج الدور والفيلم في شكل يوضح بعض ما كان يجري في كواليس الثورة المصرية)

نصف قرن من عمر الثورة المصرية. نصف قرن.. لو كانت السينما تصور خلالها ثلاثة مشاهد فقط كل عام لأصبح عندنا فيلم عالمي يؤرخ لثورة يوليو 52 التي كانت بداية لنزاعات التحرر في المنطقة العربية والقارة الإفريقية، بل إن كثيرًا من حركات التحرر في أماكن بعيدة من العالم قد استمدت عافيتها و"همتها" من الثورة المصرية!

صحيح أننا وجدنا "أثرًا" لثورة يوليو في أفلام مصرية عديدة، وقد يكون هذا الأثر ممثلاً في "كشط" صورة الملك السابق فاروق كما في فيلم "غزل البنات"، أو يكون على هيئة وضع صورة في مكان بارز لرمز الثورة المصرية وثاني رؤسائها (جمال عبد الناصر).. وقد يكون جملة محشورة حشرًا في فيلم اجتماعي كأن تقول بطلة الفيلم وهي تشكو من المستبِدّ "إحنا دلوقتي في عهد جديد.. عهد الثورة" أو شيئًا من هذا القبيل..

ولكن ليس هذا ما يخلّد الثورة، وليس هو ما كانت تطمح إليه (السلطة) من الفن السابع..

وما بين هذا وذاك كانت هناك (علاقة) قائمة، وخيوط ممدودة بين الشد والجذب بين الفنان وسلطة الثورة المصرية.. ومن الطريف أن نجد فيلمًا اجتماعيًّا مثل فيلم "الفتوّة"، وهو أحد روائع المخرج الراحل صلاح أبو سيف، يتناول من بين ما يتناول جانبًا من فساد عهد الملكية، وليس هذا بمستغرَب؛ فالحياة الاجتماعية هي جانب من نسيج السياسة، ومرآة تنعكس عليها فساد أو نزاهة الحكيم، وفي الفيلم شلة المنتفعين والمتاجرين بالألقاب، بل وبفاكهة الخاصة الملكية (بطيخ مولانا)، وهو تيار وُجِدَ وانتعش في الفترة التالية للثورة، لعله من الصدف أيضًا أن الشركة المنتجة لهذا الفيلم كان اسمها "أفلام العهد الجديد" لصاحبها

فريد شوقي، وبالطبع يمكن أن نستنتج أن العهد الجديد هنا هو عهد الثورة، حيث إن الشركة تكونت عام 1953، بينما عُرِض الفتوة في 1957/4/29. وجدير بالذكر أن الفيلم بطولة فريد شوقي، وتحية كاريوكا، وزكي رستم، وضيفي الشرف: هدى سلطان، ومحمود المليجي.

مصطفى كامل:

وكانت الثورة هي بارقة الأمل لفيلم "مصطفى كامل" الذي بدأ العمل فيه قبل الثورة، ولكن لأن العهد الملكي لم يكن يتحمس لتلك النوعية من الأفلام التي تثير الهمة الوطنية، أو تلك التي تتناول حياة رموز وطنية غير الملوك والحكام، فلم يسمح بعرض الفيلم إلا بعد أن جاءت الثورة، وتم السماح بعرض الفيلم في 1952/11/14؛ أي في نفس عام ولادة الثورة المصرية.

وهو بالمناسبة الفيلم الوحيد لبطلة أنور أحمد، وشاركته البطولة ماجدة، والفنانون: حسين رياض، محمود المليجي، أمينة رزق، عن قصة الأستاذ فتحي رضوان.

الله معنا:

ربما كان أول فيلم تناول الثورة كموضوع أساسي وبشكل مباشر هو فيلم "الله معنا" الذي كتب قصته إحسان عبد القدوس، والذي بدأ أحداثه من قصة الأسلحة الفائدة (التي تضاربت الأقوال حولها في الفترة الأخيرة)، والتي كشف قصتها صحفيًّا إحسان مِن خلال مجلة روز اليوسف، وأضاف لها تشكيل الضباط الأحرار، وعرض الفيلم في الشهور الأولى من عام 1955، وقام ببطولته السيدة فاتن حمامة، وعماد حمدي، محمود المليجي، وشكري سرحان، والإخراج لأحمد بدر خان.

ردّ قلبي:

ويعدّ فيلم "رد قلبي" من أكثر الأفلام السينمائية عذوبة التي تناولت الثورة، ومن أجملها، ففيه "رقة" الرومانسية، و"عمق" العلاقات الاجتماعية، ومخاطر العمل الوطني في أوقات الشدة، وسلاسة الأداء التمثيلي لنجومه، وهم باقة من ألمع نجوم السينما المصرية، بدءًا من العملاق حسين رياض، إلى النجوم: شكري سرحان، مريم فخر الدين، صلاح ذو

الفقار، الفارس أحمد مظهر، وكمال ياسين، وللأخير قصة سنحكيها بعد سطور قليلة تتعلق بدوره في الفيلم.

والقصة والحوار كتبهما بعمق وعذوبة مدهشين الأديب يوسف السباعي، والقصة باختصار هي قصة رجل من الطبقة الدنيا استطاع أن يقتطع من قوت يومه ليحقق حلمه في ولديه، وهو ما نجح فيه، ونأتي للخط الرومانسي في الفيلم، وهو المتمثل في شخصية "علي" شكري سرحان الذي خفق قلبه – وهو ابن خادم القصر (الجنايني) – لابنة الباشا، "وما أدراك ما الباشا في سالف الدهر والزمان!"، وعندما يكتشف ابن الباشا العلاقة بين أخته وابن الجنايني يقوم بطرد الجنايني وليس ابنه فقط، ويهدد ويتوعد فتتظاهر الجميلة أنجي بقبول الأمر الواقع، ولكنها تظل على العهد، ويتدخل شقيق علي بإنهاء العلاقة بينهما عن طريق الخديعة رحمة بشقيقه من حب بلا أمل، ومع حريق القاهرة السابق للثورة، يكتشف "علي" الخديعة، ويعرف أن حبيبته على العهد باقية، وفي الوقت نفسه يعرف "علي" حبًّا أكبر من حبه لأنجي.. حب الوطن والمبادئ، من خلال كمال يس الذي يكشف له عن أنه أحد قيادات تشكيل الضباط الأحرار، وينضم إليهم "علي"، وتتفجر الثورة، ويكلّف بتنفيذ أحد أهداف الثورة، فيرأس لجنة مصادرة أملاك كبار الإقطاعيين، ويذهب إلى قصر أنجي التي تتوهم أنه جاء للتشفي فيها، ولكنها سرعان ما تكشف عن تعاطفها مع مبادئ الثورة، وتفوز بقلب حبيبها، ونفوز نحن المشاهدين بواحد مِن أرقّ الأفلام الوطنية.

وعندما علم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بتفاصيل الفيلم، وأن كمال يس سيقوم بالدور نفسه الذي لعبه ناصر، حرص على الالتقاء به عدة مرات، وناقش معه كثيرًا من التفاصيل كي يخرج الدور والفيلم في شكل يوضح بعض ما كان يجري في كواليس الثورة المصرية.

وفي العام نفسه (1957) يقال إن الرئيس جمال عبد الناصر قد استدعى المخرج عز الدين ذو الفقار والفنان فريد شوقي، وناقش معهما ضرورة إنتاج فيلم عن مدينة بورسعيد الباسلة وتصديّها للعدوان، وقد كان ذلك في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر، وبالفعل تم إنتاج الفيلم، وعرض في شهر يوليو من العام ذاته، وقام ببطولته فريد شوقي، وليلى فوزي،

وشكري سرحان، وزهرة العلا، وأمينة رزق، وحسين رياض، وأحمد مظهر، ورشدي أباظة، وكما هو واضح من فريق العمل أنه قد اجتمع لهذا الفيلم أكبر حشد من نجوم الصف الأول.

شيء من الخوف:

عُرض فيلم شيء من الخوف في يوم 1969/2/3، وهو من إخراج حسين كمال، عن قصة الأديب ثروت أباظة، وحوار صبري عزت، والبطولة للنجوم: محمود مرسي، وشادية، ويحيى شاهين.

وعرض الفيلم قبل وفاة عبد الناصر بما يقترب من العشرين شهرًا، وبعد "شيء من الخوف" بنحو ثمانية شهور، وتحديدًا في 1969/10/13، عرض فيلم "ميرامار" للمخرج كمال الشيخ، عن قصة نجيب محفوظ، وسيناريو وحوار ممدوح الليثي، وبطولة: يوسف شعبان، وشادية، ويوسف وهبي، وعماد حمدي، والوجه الجديد وقتها عبد الرحمن علي، ومِن قبله عُرض فيلم "اللص والكلاب" – قبل ذلك بسبع سنوات – وجميعها أفلام تدخل في بند "السياسة"، وجميعها أيضًا أفلام تنتقد النظام ولا تهادنه، وبرغم كل ما قيل عن الطبيعة القاسية التي حكمت مرحلة ما بعد الثورة، إلا أن فيلمًا من هذه الأفلام لم يُصادَر، ولم يمنع عرضه، وقد يكون مفيدًا هنا أن نروي حكاية فيلم "شيء من الخوف" – وهي القصة التي قيل إنها تنتقد عبد الناصر شخصيًّا – لنوضح موقف السلطة (الرئيس) منها!

فالفيلم يتناول قصة عتريس.. الطفل الذي نشأ ليجد جده قائمًا على تربيته على القسوة، ويغرس فيه حب الانتقام، أو حتى الانتقام من الحب، أو إن شئت كراهية الحب (!) وبالفعل يستطيع الجد بهذه التربية أن يغيّر من معالم شخصية الحفيد الذي يكبر ليتولى تسيير أمور قريته، وينجح في السيطرة عليها وعلى مقدرات أهلها بالكرباج، وبالحديد والنار يخضع له الجميع.

وفي مقابل عتريس نجد "فؤادة" الزهرة المتفتحة التي لا تعرف سوى الحب، والتي يجمعها علاقة حب متبادلة مع عتريس منذ مرحلة البراءة، ورغم ذلك فهي تقف ضده وتتحداه بعد أن لمست قسوته في التعامل مع أهل قريتها، ولا يجد عتريس مفرًّا من الزواج منها رغمًا عن إرادتها وإرادة والدها الذي لا يجد مفرًّا هو الآخر من تزوير شهادته ليعلن

رضوخ فؤادة للزواج من عتريس. وعندما يشيع النبأ تبدأ الهمسات ثم ما تلبث أن تصبح صراخًا: "زواج عتريس من فؤادة باطل!" وصيحات وهتافات يتمنى معها عتريس لو أصابه الصمم حتى لا يسمعها بعد أن فشل في قطع ألسنة كل الناس، وينتفض أحد المكلومين لقيادة أهل القرية الذين يحاصرون قصر عتريس ويصبّون عليه نيران الغضب، لتحاصره بين جدران قصره.

قالوا: إن عتريس هو عبد الناصر، وفؤادة هي قلب مصر، والقرية هي كل مصر، وأن هناك تلميحًا لتغييب الدستور وتكميم الأفواه.

واحتدم الخلاف بين "مسامح" في عرض الفيلم، وبين "رافض" لهذا العرض، ومُطالِب بأن يكفي على الفيلم "ماجور"، وشاركوا بذلك في صنع دعاية ضخمة للفيلم.

ورأى البعض أن يرفع الأمر إلى الرئيس عبد الناصر، فأرسلوا له "بكرات" الفيلم، ليتم عرضه عليه ومعرفة هل سيلاحظ أن هناك وجه شبه بينه وبين عتريس أم أن الأمر لا يعدو أن يكون وهمًا في خيال الرقباء. وشاهد ناصر فيلم "شيء من الخوف"، وعلى الفور اتصل بالسيد ثروت عكاشة قائلاً له: "يا ثروت مشّي الفيلم.. الفيلم بيتكلم عن عصابة، طيب لو احنا عصابة كانت الجماهير خِلْصت منّا مِن زمان". ويبدو أن البعض "صعب عليه" أن يأتي القرار من عبد الناصر مؤيدًا لعرض الفيلم فقالوا إنه ذكاء من عبد الناصر حتى لا يحقق شهرة لصناع الفيلم، أو حتى لا يتسرب إلى الخارج!

السادات شاهد على ميرامار:

أما حكاية فيلم ميرامار، فقد حدث أن كلف جمال عبد الناصر، السادات لمشاهدة الفيلم – وهو عن قصة الأديب الكبير نجيب محفوظ – بعد أن اشتد الهجوم على الفيلم واعتبروه مهاجمًا لتنظيم الاتحاد الاشتراكي "أحد تنظيمات ثورة يوليو" وباعتبار الفيلم ممثلاً للرجعية، وأنه يسخر من الأوضاع، وبعد أن شاهد السادات الفيلم رفع تقريره إلى عبد الناصر بأن الفيلم ليس به ما يدعو لمنع عرضه!

أفلام ما بعد الرحيل:

وبعد رحيل عبد الناصر – تمامًا كما في حالة رحيل أي عهد أو نظام – ظهرت أفلام عديدة تنتقد بعنف، بعضها مجاملة للحكومة الجديدة، وبعضها لأنها حصلت على حريتها الكاملة، والبعض الآخر حاول أن يقدم التاريخ و"التأريخ" لسلبيات مرحلة، ومن الأفلام التي انتقدت بعنف فيلم "الكرنك" الذي أخرجه على بدر خان عام 1975 وتقاسم بطولته سعاد حسني، وكمال الشناوي، ونور الشريف، ومحمد صبحي، وفيه تعرية لما سمي بمراكز القوى.

وبعدها انهمر سيل الكتابات المعادية للعهد الناصري، ولكن قليلين مَن انتقدوا الثورة في السينما، ربما لأننا مازلنا نعيش في عصر الثورة.

محاكمة عبد الناصر:

ومن الأفلام التي ظهرت وتحوي إسقاطات إدانة لفترة الحكم الناصري، ذلك الفيلم الذي عاد به المخرج الكبير صلاح أبو سيف بعد غيبة طويلة عن العمل، وهو فيلم "البداية" الذي شارك في كتابة الحوار له لينين الرملي عن قصة صلاح أبو سيف في إطار كوميدي سياسي، وفيه محاكمة بالتلميح لثورة يوليو 1952، وكانت طريقة أبو سيف في ذلك هي استخدام الإشارات والأسماء والرموز، مرورًا باستخدام موسيقى الأناشيد والأغاني الوطنية في فترة الستينيات مع تحوير لكلماتها.

والفيلم باختصار يدور حول طائرة تسقط في الصحراء ليجد مجموعة من الركاب الناجين أنفسهم متناثرين على الرمال، هذه الشخصيات هي تقريبًا ممثلة لفئات المجتمع، ففيها رجل الأعمال والفنان التشكيلي والراقصة والفلاح والطفل والصحفية والرياضي. وتلمع في رأس نبيه بك فكرة السيطرة على واحة يعثرون عليها، بها الماء والثمار والجو الآمن، ويحاول نبيه الحصول على دور الزعيم، وهو ما ينجح فيه عن طريق لعبة الحظ، ويبدأ في استغلال الجميع: الملاكم ليحميه من أعدائه – أعداء الوطن في رأيه – والصحفية لتمجيد أعماله في صحيفة الحائط التي تصدرها، والفلاح في جني الثمار "التمر"، والباقي يعمل من أجل إنشاء مصنع للخمور من فائض التمر الذي يدخره على حساب اقتطاع جزء من حصة مَن لا يرضى عنه.

هذه هي اللعبة التي تدور حولها حدوتة "البداية"، والتي تحمل تلميحات حول الحقبة الأولى من عمر الثورة المصرية من خلال مجموعة من الإشارات والرموز، وقيل أن صلاح أبو سيف ينتقد شيئًا محددًا من خلال الفيلم، وهو تأكيد الاتهام الموجه لعبد الناصر بأنه سمح لعناصر الثورة المضادة التي ظلت تترقب الفرصة للانقضاض وتحقيق مكاسبها الخاصة. والتي كانت – سواء وهي تدري أو لا تدري – توجه طعناتها إلى الثورة ومفجرها.

وهكذا كان للسينما دور في تمجيد السلطة أو محاكمتها!!